قصة اجتماعية :

يقظـــة ...

للأستاذ مختار الوكيل

كانت الغرفة الصغيرة القذرة التافهة الأثاث تغرق النفس الاشمئزاز المشوب بالشفقة والرثاء . وكانت الريح القارصة الباردة تنفذ اليها من ثنايا النافذة التي تحطم زجاجها منذ عديد من السنوات ، وأرسل مصباح البترول ضوءه الباهت الكابي على وجه المريضة الشاحب الشديد الاصفرار والذبول . كانت مغمضة العينين كمن استرسل في حلم عميق وتهافتت انفاسها في ضعف واستخذاء . إنها حمى الملاريا قد استبدت بها ، وأنشبت مخالبها الحادة في كيانها ، وتغلغلت في شرايين جسدها المكدود . وقد أدرك الدكتور بهجت هذه الحقيقة المؤلمة لأول وهلة منذ أمسك بيدها الناحلة الهزيلة ، ولكنه لايزال منحنيا على فراش المريضة المستضعفة الواهنة القوى ، ولا تزال يده في يدها الشاحبة يعد نبضها البطيء في أناة وهدوء ، ولكنه كان مبلبل الخاطر في ذلك المساء بحيث عجز عن تركيز ذهنه .

أجل ، لقد ضاق ذرعا بالحفلات الأسبوعية التي دأبت زوجته خديجة هانم على إقامتها في منزله ، فتدعو صفوة الأصدقاء الى العشاء والشراب والرقص على نغمات الموسيق . وإن ذهنه الشارد المبلبل لينطلق الآن بعيدا عن هذه الغرفة الضيقة المهملة القذرة ، في حي بولاق الى المعادى ، حيث تقوم الفيلا البديعة التي كان قد ابتناها لتكون وكر غرامه وسعادته عندما اعتزم الزواج من خديجة . كان ذلك منذ ستة أعوام ...وكان لايزال حديث عهد بالحياة العملية ، ولكنه كان طبيبا ناجحا مقبلا على عمله في نشاط وذكاء عجيبين ، وشهد له كبار الأطباء بالتفوق والنبوغ ، وتنبأوا له بالمستقبل العظيم ، الأمر الذي شجعه على الزواج من خديجه هانم ، كريمة حشمت باشا ، على الرغم من الفارق الكبير بين وضعهما الاجتماعي . فهو من أسرة بسيطة من عامة الشعب ، وهي من أسرة ذات حسب ونسب وجاه ، ومع ذلك فقد دأبت خديجة منذ العام الأول من زواجها على إقامة حفلات الرقص الأسبوعية ، تدعو لها الأصدقاء ، ومن هم أولئك الأصدقاء؟ ذلك الثقيل الرذل الخاطل محمد بك ، الذي ورث عن أبيه عدة مئات من الأفدنة أضاع معظمها على حسناوات أوربا ورهن ماتبقى منها على موائد القمار ؛ وذلك الشاب العابث الرياضي صاحبك الذي لاعمل له سوى لعب "الشيش"

وركوب الخيل والتطفل على عباد الله . وثمة طائفة من السيدات العابثات الماجنات اللواتى يدأبن على السهر ليلا والنوم نهارا ، حتى أذبلت الخمر عيونهن وقضت على حيويتهم وأشاختهن قبل الأوان ، ويدعين بعد ذلك فى تبجح أنهن سيدات الطبقة الراقية ..... أية طبقة راقية هذه ؟

وألقى الدكتور بهجت نظرة خاطفة على الساعة التى بمعصمه ، فاذا بها تجاوزت العاشرة بقليل ، فأرسل من صدره زفرة طويلة عميقة ، ضمنها كل ما احتواه من ألم دفين . ثم ألقى على وجه المريضة نظرة فاحصة متأملة ، فاذا به يزداد هيبة وكبرياء واحتراما ..... إن هذه المرأة الرقيقة الحال البسيطة التى شاطرت زوجها الكفاح فى سبيل العيش خير من كافة النساء اللواتى يجتمعن الآن فى منزله يعبثن بالفضيلة والمال .. إنها تدب إلى الخمسين ؟ ولكن الناظر إليها يخيل إليه أنها جاوزت السبعين . لقد عاشت عيشة الكفاح والنضال والعمل المضنى من نعومة أظفارها ؟ ومع ذلك فقد كانت سعيدة بعيشتها الهادئة المغمورة .

ولم تلبث السيدة المريضة أن رفعت رأسها فى ضعف وجهد ، ثم فتحت جفونها فى بطء شديد ، وانفرجت شفتاها فى صعوبة وهى تلوك عبارة لم يتبينها الطبيب أول الأمر ، ولكنه أدرك بعد قليل انها تسأل عن زوجها وهل هو عائد من عمله المضنى الشاق . وكأن الله استجاب لرغبتها فاذا بباب الغرفة ينفرج عن شيخ محدودب الظهر ، ألقى تحية المساء على الدكتور ثم هرع إلى فراش المريضة حانيا عليها ، حاملا يدها فى يده ، ضاغطا عليها فى حنو لا مثيل له ، ثم يهرع الرجل إلى الطبيب شاكرا فضله على تجشمه الصعاب وتفضله بالحضور لفحص المريضة ، ولا يلبث الشيخ أن يسأل الطبيب عن حالتها وهل هى مما تبعث على الخوف ؟ فيطمئنه الطبيب ويعطيه " الروشتة " موصيا إياه باحضار الدواء صباح الغد . ويأخذ الطبيب فى إعداد حقيبته التمهيد تأهبا للانصراف ، وفيما هو يخطو إلى الباب اذا بالرجل يجرى إليه لاعطائه أجره ، ولكن الدكتور بهجت يأبى أن يتناول أجرا أو يلح الرجل ويزداد الدكتور إباء وهو يقول : إنها والدتى — أعنى أنها قريبة الشبه بوالدتى — فسامحنى إذا رفضت أجرا نظير معالجة أمى !

وينصرف الطبيب بعد أن يلقى تحية المساء ، ويهرع فى سيارته ، جالسا إلى عجلة القيادة ومديرا مفتاحها فى اندفاع جنونى ، لقد صمم الدكتور بهجت على أن ينتشل زوجته من الهاوية التى تتردى فيها رويدا رويدا . أجل ، لقد بهره هذا الحب العظيم الذى يقوم بين هذين الشيخين الجليلين . لقد حسدهما .. ! ! كان يمنى نفسه وكريمته ينعم فيه بالحب الصادق مع زوجته حديثة عهد بالزواج . فابقى هذه " الفيلا " فى ضاحية المعادى ، بعيدا عن زحمة المدينة وجلبتها ، وحولها إلى دار أنيقة تصبح مسرحا للرقص والخلاعة والخمر ،

ووكرا لليائسين والفاشلين فى الحياة . ولقد رزقهما الله بصبية مليحة ، بعزيزة الملائكية ، ولكن الأم المعنية فى حياة التسخب واللهو لم تكف من غلوائها ولم تعكف على رعاية الطفلة الفاتنة كما ينبغى أن تصنع كل أم ، وانما أمعنت فى غوايتها ونزقها وانزلقت فى هاوية من اللهو والعبث والباطل .

وانطلقت السيارة تطوى الأرض طيا ، لا تلوى على شيء ، والأفكار تتماوج فى رأس الطبيب الطيب القلب . لقد اتجهت عواطفه إلى زوجته قوية عارمة ، وعقد أمره على انتشالها من وهدتها ، فان هى أبت فستكون القطيعة ويكون الفراق . وما كادت تتهادى به السيارة أمام حديقة "الفيلا" حتى نالت نغمات الموسيقى الصاخبة ملء أذنيه ، فتثير حواسه وتهيج جرح فؤاده .

وتسلل الدكتور بهجت من باب "الفيلا" الخلفى إلى المطبخ ، حيث راح يفتش عن بعض الطعام ، فقد كان الجوع قد عضه بنابه ، ثم صعد خفيف الخطى الى مخدع ابنته عزيزة فى الطابق الثانى ، فإذا بها لاتزال تعالج النوم على غير جدوى ، ففرحت بمقدم والدها وقفزت من فراشها متعلقة به ، ففنى الدكتور بهجت ماساوره من شقاء وشجن عندما ضم صغيرته الى صدره وراح يدور بها الغرفة خفيف الحركة كالطفل الصغير !

وفتح باب الغرفة وكانت الداخلة خديجة هانم فى فستان السهرة الأسود الأنيق الذى يكشف عن مفاتن جسدها ، فبادرت زوجها قائلة :

— هكذا تجيء متأخرا يابهجت فتغضب الجميع ؟ ثم تقلق الصبية من نومها الهانىء !

فلم يلتفت اليها ولم يعرها اهتماما ، ولكن الصبية تولت الرد على أمها قائلة :

— لم أكن نائمة حينما قدم والدى ، فصوت الموسيقى المزعج كان يدوى فى أركان الغرفة ...

ولم تستطع خديجة أن تقول شيئا . . لقد صدقت الصغيرة ، وساورها شيء من الندم ، واستيقظ ضميرها النائم منذ سنوات ست ، وتقدمت من بهجت قائلة له :

— لعلك جائع ياعزيزى ، هلا نزلت إلى المطبخ حيث تصيب شيئا من الطعام ؟ فأجابها زوجها فى جفاف :

— لقد تناولت الكثير منه فى "المطبخ" تجنبا لإقلاق خاطر زوارك الكرام !

فسكتت خديجة ولم تحر جوابا ، ولكن الصغيرة التى كانت تراقب والديها بعينين قلقتين لم تلبث أن خاطبت أمها قائلة :

— ولماذا ياماما لاتزاقصين والدى ؟وحذكا كل مساء ، بدلا من جميع هؤلاء الناس !

فقال الطبيب لطفلته :

— يظهر أنك ثرثارة هذا المساء ، وجدير بك أن تنامى ملء الجفون ، هيا إلى مخدعك أيتها الحسناء الصغيرة ، وفى الصباح الباكر سأسافر معك إلى فندق بحيرة " قارون " حيث أراقصك وحدى أسبوعا بتمامه ..

وابتهجت الطفلة الصغيرة بهـــذا المقترح وراحت تحتضن والدها بذراعيها الصغيرتين اللدنتين فامتلأت عيناه بالدموع الكبيرة .

ولم تلبث الزوجة أن انفجرت باكية ثم هرعت إلى صدر زوجهـا ملقية رأسها الدقيق عليه وانهمرت الدموع من مآقيها غزيرة ، فقال لها بهجت :

— مهلا مهلا ! بعض هذا الدمع أيتها الحسناء ! إذهبى إلى ضيوفك فى رائع زينتك ، فما أحسب إلا أنهم استبطأوا غيابك . . !

فصرخت زوجته فى وجهه :

— كفى . . كفى . . لن أحفل بأحد بعد اليوم ، ولن أستقبل فى منزلى ضيوفا . . لقد كنت بلهاء غريرة . . !

فاحتضنها زوجها بذراعيه وراح يجفف دموعها بمنديله ، فنظرت إليه نظرة تنطوى على الحب الأكيد وقالت مستعطفة :

— أتسمح لى بمرافقتكما إلى فندق بحيرة قارون فى الصباح ؟

فنظر الدكتور بهجت الى الصغيرة التى كانت لاتزال ترقبهما من فراشها الوثير ، وقال :

— اسألى عزيزة ، فهى صاحبة المشروع ... فبادرت الصغيرة قائلة فى نبرة حنون :

— طبعا ، وهل كنا سنذهب من غير ماما ؟

وهرع الزوجان إلى فراش الطفلة وانهالا عليها تقبيلا ، ثم التفت كل منهما الى الآخر والابتسام يغطى وجهيهما ، ولم يلبثا أن تعانقا وتبادلا قبلات السعادة .